

النورسي ودعوته

ابو الحسن علي الحسيني الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه اجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين وبعد:

قد كتبت في الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية من ان الوضع الذي واجهه الاتراك العثمانيون في اواسط القرن التاسع عشر رغم الدولة الحرة واسعة الارحاء هو انهم فقدوا روح الثقة بالنفس وعرفان الذات بعمر العصور وكر الليالي والدهور ولم يكن فيهم حماس القرون الاولى ولا قوة الايمان واليقين لإبداء العلماء وزعماء الدين ضعفاً وقصوراً في توجيه الامة والبلاد توجيهها علمياً وفكرياً وفوق كل ذلك فقد اشتغل السلاطين إلا من عصم ربك، اسم الدين والخلافة لصيانة مصالحهم الخاصة وتحقيق رغباتهم. زيادة على ذلك كانت الحضارة الغربية فائضة بالروح الجديدة والطاقات الجديدة، وممثلة بالحماس الجديد والأمال الجديدة، وجدت وكلاءها في تركيا فكرياً علمياً في صورة ضياء كوكب آلب وكمال اتاتورك وكان اولهما رائد التنوير الفكري الغربي، وقد تكهن في سنة 1900م بانقراض الدولة العثمانية واضطراب جهاها، والثاني اعلن الغاء الخلافة وقام بعلمنة البلاد، حتى اصبحت تركيا تفقد طابعها الاسلامي ومزاياها الاسلامية التي كونتها واحتضنتها منذ زمن بعيد.

ولكن سنة الله في هذا الكون ومن الحقائق التاريخية ان المتقضي للتاريخ الاسلامي لا يرى ثغرة ولا ثلثة في جهود الاصلاح والتجديد ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل، ويرفع صوت الحق ويتحدى القوى الظالمة وعناصر الفساد، ويفتح نوافذ جديدة في التفكير. وذلك شأن الاسلام فانه - وإن كان مؤسساً على عقائد ثابتة وحقائق خالدة - زاخر بالحياة حافل بالنشاط، له من الحيوية معين لا ينضب ومادة لا تنفذ، صالح لكل زمان ومكان، وعنده لكل عهد جديد من اطوار الحياة ولكل جيل جديد من الاجيال البشرية ولكل عهد مستأنف من عهود التاريخ، ولكل مجتمع عصري من مجتمعات البشر مدد لا يقصر عن الحاجة ولا يتأخر عن الاوان.

من هذه الشخصيات شخصية طلعت على افق تركيا في اواسط القرن التاسع عشر باسم بديع الزمان سعيد النورسي الذي عاش تلك المرحلة الدقيقة التي تنتقل فيها تركيا من طور الى طور، وكان مرهف الحس وذكي فطنا فتفرس الخطر المحقق ببلادها وساءه ذلك الوضع السائد فيها من

فشو الجهل والبطالة ووجود الأمية في الاوساط الشعبية وخمود تلك الشعلة الايمانية والغيرة الدينية التي كانت متأججة في الشعب التركي من ذى قبل فشمّر عن ساق الجد لمحو الامية ونشر العلوم الدينية فعكف على دراسة القرآن دراسة عميقة ككتاب خالد مليئ بالحيوية والنشاط يحل المشاكل والقضايا ويفك الالغاز وصالح لكل زمان ومكان، كما كانت له اليد الطولى في العلوم الجديدة من التاريخ والفلسفة والرياضيات والفلكيات وغيرها حتى اصبح جامعاً بين العلوم القديمة والجديدة، يشار اليه بالبنان ويجلّه كبار العلماء في عصره وكان متصدياً للدرس والافادة، والظروف في البلاد في طور الانتقال وسيل الحضارة الغربية يجرى فيها من غير هوادة ولا رحمة فخرج من تلك الزاوية العلمية وخاطب اصحاب السياسة والحكومة بمقالاته وكلماته التي رفع فيها اللثام عن وجه الخطة التي دبرتها عقول الاعداء في الدولة العثمانية بإعلان القانون الجديد وشرح المفهوم الصحيح للحرية في الاسلام وطالب من الدولة العثمانية تنفيذ الشريعة في البلاد. شارك في الحرب العالمية الاولى بنفسه ثم ابلى بلاءً حسناً في جهاد قفقاس ضد روسيا وألقي عليه القبض فيه وبقي اسيراً سنتين عندهم ثم رجع الى بلاده بعد ركوب الاهوال وتحمل المشاق.

نظراً الى هذه البطولات والتضحيات أعجب به السياسيون والحّ عليه كمال اتاتورك بالذهاب الى أنقرة سنة 1922 واستقبل استقبالاً حاراً على المحطة لكنه ما لبث ان عثر على تلك التعديلات التي قام بها كمال والتي تجعل الشعب التركي كله فريسة سائغة للزندقة والإلحاد، فاعدّ ورقاً للتقديم الى اعضاء البرلمان حث فيه على التمسك بالشريعة الغراء واثار فيهم شرارة الايمان الكامنة فتأثر ستون عضواً من البرلمان وعادوا الى الصلاة. ويذكر الشيخ هذا السفر في رسالة "الطبيعة" يبدي فيها تأسفة وقلقه:

" دعيتُ لزيارة انقرة سنة 1338هـ (1922م) وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجم باندحار اليونان امام الجيش الاسلامي الا انني ابصرت خلال موجة الفرح هذه زندقة رهيبية، تدب بخبث ومكر وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة الى عقائد اهل الايمان الراسخة بغية افسادها وتسميمها فتاسفتُ من اعماق روحي وصرخت مستغيثاً بالله العلى القدير ومعتصماً بسور هذه الآية الكريمة (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض) من هذا الغول الرهيب الذي يريد ان ينقض على اركان الايمان ويعمل معا وله في اسه واصوله فجئت ضمن هذه الرسالة ببرهان قوي حادّ قاطع يقطع رأس تلك الزندقة ويدحرج اشلاءها باللغة العربية واستقيت معانيها من نور هذه الآية الكريمة لإثبات بدهاة وجود الله سبحانه ووضوح وحدانيته.(1)

عاد الشيخ من هذا السفر كئيباً حزيناً يأخذه اليأس من هذا الرجل الذي كسب سمعة كقائد حربي ممتاز ولقب بالغازي في بعض المعارك ولكنه كان رجلاً لا دينياً ملحداً منذ نعومة اظفاره لا يمت بصلة ما الى العقيدة الاسلامية والشريعة الغراء كما يصفه "عرفان اوركا" في كتابه "اتاتورك" الذي ألفه بالانكليزية- عن اعجاب واخلص بشخصية كمال، يقول: " كان قليل الاختلاط غير محبب بين الاصدقاء في حياته المدرسية وكان يتسلى بالخمير ويشغل نفسه بها فانه لا يجد ما يسلي به نفسه وروحه كالايمان بالله واليوم الآخر لانه كان لا يؤمن بهما" ..

ويقول في موضع: قد اقتنع بان كفاحه يجب ان يوجهه الى الدين. فانه منافسه الاكبر. وكان يعتقد من صغره انه لا حاجة الى الله انه اسم غامض خداع مجرد عن كل حقيقة. وكان لا يؤمن الا بالمشاهد المحسوس.

ان نشأته الفكرية وتطورها وميوله وطبيعته جعلت تركيا تؤول الى العلمانية والثورة على الماضي والتغرب المتطرف والدكتاتورية العسكرية، واقام في انقرة حكومة مستقلة، وألغى الخلافة وسلطنة آل عثمان، وكان اول رئيس لها سنة 1924م وبذلك اراد تحويل البلاد رأساً على عقب. وجند لذلك كل طاقاته وقام باعمال العنف والتعسف ليخلع الشعب التركي جلباب التشخص الاسلامي وليتخلى عن الحضارة الاسلامية التي ورثها اباً عن جد واحتضنها حباً وكرامة".

ان الشيخ شاهد هذه الظروف بعيني راسه بل اکتوى بناها ولعب دوراً فعالاً فيها ولكنه امتاز بين اقرانه بأمرين:

الامر الاول: هو فكره الحصيف ونظراته الثاقبة ورأية السديد في تلك الاوضاع السائدة على تركيا ما عدا جهاده الطويل وتضلعه من العلوم القرآنية والقيام بخدمتها ونشرها، انه انعم النظر على الاحوال ونزل في اغوارها وعثر على مواضع الضعف فيها وعرف المنافذ التي تهب فيها الرياح العاتية والعواصف الهوجاء التي تقضى على الحديقة الغناء وتأكل اوراقها الخضراء كما تأكل النار الحشيش فوضع اليد على الوتر الحساس. فانه راي على راس قائمة هذه المواضع الضعيفة تلك الفكرة الخاطئة والحركة الهدامة التي نشرت وانشئت باسم "القومية" لان كل حركة للقومية في العالم الاسلامي اتخذت فلسفة لنظامها وتطورت الى عقيدة، كانت تحدياً للاسلام وحاولت ان تسيطر على تلك المساحة للحياة الانسانية التي كانت خاضعة لحكم الاسلام وسيادته واشتملت هذه الحركة على العقائد والاخلاق والعواطف ومشاعر الحب والكرهية والولاء وعدم الولاء ورباطة الجأش والحماس وجميع العناصر والاجزاء التي تشتمل عليها الاديان السماوية، وتعتبرها جزءاً منها ولاجل ذلك كانت كل حركة من هذه الحركات التي لها هذا الشأن والاحتواء والمضمونات

والتأثير موضع حذر بل موضع خطر لدى المؤمنين بالدين السماوي الأخير، الدعاة إليه عن بصيرة وإيمان. فبادروا إلى محاربتها باعتبارها منافسة لهم لأن نشوءها وانتشارها يحملان في أعقابها أخطاراً تفك الوحدة الإسلامية وتنتشر الإلحاد والضلال من جرائمها وكانت مقاومتها وكبح جماحها الواجب الأول في نظرهم، وتستوى في هذا الأمر حركات القومية والوطنية التي نشأت في تركيا وإيران وكردستان وأفغانستان، وتصدى الغيارى على الدين والراسخون في العلم وأصحاب العقيدة السليمة في هذه البلاد كلها لمواجهة تلك الحركات وكان شعارهم تحطيم جميع هذه الأصنام العنصرية والثقافية وإعلان (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون). فتصدى الشيخ لمواجهة هذه الحركة القومية ودحض إباطيل هذه الفكرة الباطلة بجميع إمكاناته وحذر جمع المصابين بهذه الفكرة بقوة البيان وبالغ الحجة.

ويخاطب أخا تركيا ويحذره من أن يقع فريسة هذه الفكرة لأن قوميته امتزج بالاسلام: يقول: "احذر وانتبه! انت بالذات، فان قوميتك امتزجت بالاسلام امتزجاً، لا يمكن فصلها عن الاسلام ومتى ما حاولت عزلها عن الاسلام فقد هلكت اذاً وانتهى امرك، ألا ترى ان جميع مفاخرك في الماضي قد سجل في سجل الاسلام، وان تلك المفاخر لا يمكن ان تمحي عن الوجود قطعاً فلا تمحها انت من قلبك بالاستماع الى الشبهات التي تنثرها شياطين الانس". ان الذي حافظ على حياة الدولة الاسلامية وكيانها - رغم ان تعدادها عشرون او ثلاثون مليوناً - تجاه جميع دول اوربا العظيمة هو هذا المفهوم النابع من القرآن الكريم الذي يحمله جيشها "اذا مت فانا شهيد وان قتلنا فانا مجاهد" هذا المفهوم دفع ابناء هذا الوطن الى استقبال الموت باسمين مما هزّ قلوب الاوربيين وارهبهم، ترى اي شئ يمكن ان يبرز في الميدان ويبعث في روح الجنود مثل هذه التضحية والفداء وهم ذوو افكار بسيطة وقلوب صافية؟

ايّ عنصرية يمكن ان تحل محل هذا المفهوم العلوي؟ واي فكر غيره يمكن ان يجعل المرء يضحى بحياته وبدنياه كلها طوعاً في سبيله؟". (2)

وفهم الشيخ ان هذه الحركة ليست قائمة على فكرة لائقة بأى بلد او جديرة بأى مجتمع بل انما هي جريمة قومية تبرز جميع الجرائم القومية التي سجلها تاريخ هذه الامة وانها حركة هدم وتخريب تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ وانها خطوة حاسمة مشئومة في سبيل الدمار القومي والانتحار الاجتماعي. ولاشك ان القومية في كل جانب من جوانب الارض سفينة تتخرب وتفككت الواحها وتناثرت مساميرها وتحارب ربابيتها وكتب عليها الغرق فلا يجوز للمسلمين ان يلتجؤا الى هذه السفينة المضطربة المشئومة وعندهم سفينة النجاة التي تسع العالم كله وتوصل

الناس الى شاطئ السلام.

الامر الثاني: هو اختيار منهج دعوي آخر يلائم الظروف التي آلت اليها تركيا وقد اشتغل عقله في فتح الجبهات الجديدة وتهيئة مجالات الكفاح بعد عودته من معتقله وبعد ما اخفقت ثورة "سعيد بيران" ولقي المسلمون الغياري على دينهم خسائر فادحة في ارواحهم وممتلكاتهم. قد اشار عليه الشيخ ان لا يختار في هذه الاوضاع هذه الطريقة الثورية لان ضررها لا يعود الا على المسلمين المتحمسين.

ونفي الشيخ من بلده ولم يزل من منفى الى منفى حتى جاءه الاجل، لكنه شمر عن ساق الجد لتجلية الفكر الاسلامي وإنعاش الروح الدينية وإعادة الثقة بالنبوة المحمدية العالمية وبالشريعة الاسلامية الغراء الصالحة لكل زمان ومكان والمسايرة مع كل عصر ومصر في الشعب التركي والجيل المفتون بسحر الحضارة الغربية، واختار لذلك توجيه الرسائل التي تكون حاملة لفلذات كبده ودقات نفسه وتكون ملتهبة بالشعلة الايمانية والغيرة الدينية الى الشعب التركي افراداً وجماعات كأنه استوحى هذا المنهج من الامام احمد بن عبدالأحد السرهندي الذي اختار هذا الاسلوب الدعوى المؤثر فنجح فيه ايما نجاح وغير مجرى التاريخ وحول البلاد التي كانت سريعة المشي الى الردة العامة الى احترام الشريعة وتنفيذ احكامها.

ان رسائله لتدل دلالة واضحة على حاجة الشعب التركي خاصة والعالم الاسلامي عامة في تلك الظروف والملابسات الى عباقرة من العلماء يقوموا باعادة الثقة بالدين وبالرسالة المحمدية الخالدة وبالشريعة الاسلامية وكان يتوجع على هذه الاحوال ويتألم قلبه ويبكي عليها، وبهذه الطريقة حفظ الامة الاسلامية التركية من خطر الردة العقائدية والفكرية والحضارية الشامل التي ظهرت بل توسعت في ارجاء تركيا وتسيطرته بتلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة النافذة والارادة الحديدية كمال اتاتورك وكان هذا التحول المعنوي والردة الفكرية أخطر وأدق وأرسخ جذوراً من انقراض الدولة العثمانية والانهيار السياسي.

وقام المعجبون به وتلامذته بنشر هذه الرسائل وبثها في القرى والارياف رغم الحظر من الحكومة، فلعبت هذه الرسائل دوراً عظيماً في مجال إعادة الثقة بالشريعة الاسلامية وبصلاحية الاسلام لمسايرة الركب البشرى بل لقيادته.

فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء، واسكنه فسيح جناته.

الهوامش

(1) كليات رسائل النور ج/ 3 «اللمعات»: 267

(2) كليات النور ج/ 2 «المكتوبات»: 417 ، 420